■ محمد حسين هيكل ■

مؤرخ عبادة العمل الإسلامى

obeikan.com

obeikandl.com

الرجل هو الأسلوب..

مثل فرنسى.. لعله يصدق على الدكتور محمد حسين هيكل.. فى الجانب الذى يعنينا دراسته.. وهو تتبع الفكرة الإسلامية فى تفكيره.

إن نظرة واحدة إلى مؤلفات الدكتور هيكل الإسلامية، لتؤكد أن أسلوبه فى هذه الكتابات، يمثل ملامح شخصيته التى عرفها القارئ على مدى خمسين عامًا من التأليف. فهذه الشخصية تتنازعها ثلاثة ملامح بارزة. أولى هذه الملامح: كونه قصاصا، وثانيها: كونه صحفيًا، وثالثها: كونه سياسيًا.

وصدى أو ترجمة هذه الملامح الثلاثة فيما تركه الدكتور هيكل من مؤلفات الإسلام، نجده بارزًا أيضًا.

فالدكتور هيكل القصاص: ترجمته اهتماماته بكتابة السير والتراجم. وهذه الاهتمامات نلمحها فى أربعة من أعمال الدكتور هيكل، وهى: «حياة محمد»، و«الصديق أبو بكر»، و«عثمان بن عفان»، و«الفاروق عمر».

والدكتور هيكل الصحفى ورئيس التحرير لواحدة من كبرى المجلات الصحفية فى عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن، وهى «السياسية»: ترجمته نجدها ببساطة فيما تركه لنا من عمل كبير، هو «فى منزل الوحى».

والدكتور هيكل السياسى أو رجل الدولة الذى تولى الوزارة أكثر من مرة، ورئاسة الحزب السياسى، ورئاسة أحد المجلسين فى البرلمان: ترجمته نجدها فيما تركه لنا من عمل مجيد، هو «الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة» فيه التقينا بالدكتور هيكل السياسى. الذى تشغله القضايا العامة والمبادئ العامة أيضاً

التى تحكم العلاقة بين الراعى والرعية، الحاكم والمحكوم. وما يتصل بذلك من مذاهب وأيديولوجيات.

لكن على الرغم من هذا.. على الرغم من تميز شخصية الدكتور هيكل بهذه المميزات الثلاث، فإن المتابع لسيرة حياة الدكتور هيكل نفسه، لواجد أن القصة هى أكثر الجوانب تأثيرًا. فمن هذه السيرة نجد أن الدكتور هيكل بدأ حياته التأليفية قصاصاً، وختمها قصاصًا أيضًا. حيث كانت أول كتبه قصته «زينب»، وآخرها قصته «هكذا خلقت».

وفن الدكتور هيكل القصصى[1] بين بدئه وختامه، تمثيلٌ حق لحياته فى مرحلتيها الطبيعيتين، واستجابةٌ صادقة لعصر الشباب حيث النمو والازدهار، وعصر المشيب حيث النضج والاختمار.

ومن هنا يلاحظ القارئ أن أغلب كتب الدكتور هيكل الإسلامية عبارة عن سير للرسول الكريم وصحابته (رضى الله عنهم)، وحتى كتابيه «فى منزل الوحى» و«الإمبراطورية الإسلامية»، فهما يدوران فى نفس فلك اهتمامه بكتابة السير بوجه عام.

ومما يؤكد أن كتابة السيرة بالنسبة للدكتور هيكل كانت هى الأقرب، ولا عجب فمن الكتاب والمؤرخين ممن ينبهون إلى صلة الرحم القوية بين القصة والسيرة. فالقصة كالسيرة[2] تعرض للمشكلة فى حياة الإنسان، أو للصورة فى مجتمع يعيشه. وتبدو المشكلة فى القصة معادلة تمامًا للأثر التاريخى الذى ينبت من خلال الأحداث التى تمر بصاحب السيرة، تؤثر فيه ويؤثر فيها، تجذبه إليها ويتفاعل معها. كما تدفع المشكلة بطل القصة إلى التفاعل مع الموقف الذى يواجهه، فيؤثر فى سير المشكلة ونموها لتصل إلى القمة، أو العقدة فى القصة. فإذا كانت القصة من الأدب الواقعى، فإن الموقف الذى يؤثر فى سير المشكلة هو الصورة التى يفرضها المجتمع على بطل القصة. وكل ما هناك من فرق بين المشكلة فى السيرة، والمشكلة فى القصة.. أن المشكلة فى السيرة تتجه إلى

الخارج، بمعنى أنها تعرض لصورة المجتمع بالتأثير الإيجابى الذى يفرضه أو يقوم به أو يحاوله بطل السيرة، فى حين تتجه المشكلة فى القصة إلى الداخل، بمعنى أنها تعرض لتأثير الصورة الاجتماعية على المشكلة التى يواجهها بطل القصة، إذ إنها تفرض نفسها عليه وتسوقه إلى قمة الحدث الدرامى أو العقدة التى ينشدها مؤلف القصة.

ومن هنا ليس صدفة إذن أن يكون معظم مؤرخى السير هم الذين يملكون موهبة الأديب وملكة الفنان. فما زالت السيرة قصة إنسانية تعج بالأحاسيس والانفعالات والمواقف والأحداث التى يقتضيها كاتب السيرة؛ ليضفى عليها الحيوية ويبعث فيها الحياة.

وكان الدكتور هيكل ممن تفرد بالميزتين معًا ميزة مؤرخ السير، وميزة الأديب، مما جعله يوفق فى كتابة الاثنين. فهو يكتب قصة «زينب»، وبعدها بسنوات يكتب سيرة «جان جاك روسو».. وغيرها، إلى أن يبدأ فى كتابة السير الإسلامية بكتابه الأشهر «حياة محمد»، وما تبعه من كتب.

لكن ما هو الحافز الذى يجذب الدكتور هيكل لكتابة هذا النوع من التاريخ ونعنى به السير؟

الدكتور حسين فوزى النجار يجيب عن هذا السؤال[٣]، فيرى أن حافز الدكتور هيكل فى كتابة السير الإسلامية هو (عبادة العمل العظيم) الذى يضفى على الحياة كل خير وبهاء، ويتوج الفكر الإنسانى بجلال الحق وروعته.

هذه الأحاسيس والمشاعر التى تتصل بالحافز والجاذبية التاريخية، هى التى جعلت الدكتور هيكل فى بعض جولاته فى ربوع الشام، يقف عند معرة النعمان، ويقول: «وتمثل لى فى تلك الساعة هذا الشيخ أبو العلاء، وارتسم أمامى تمثاله، وفصلت أمام بصيرتى آدابه وحكمته وفلسفته، وألفيت قطعة من شبابى ترتسم أمامى بقوة ووضوح، وشعرت كأن هذا البلد الذى لم أره من قبل قط يحتوى شيئًا من حياتى.. إذ ذاك سألت نفسى.. إذا كان هذا شأنى ولم

أدرس أبا العلاء دراسة بحث ممحص، ولم أقرأ عنه قراءة مفصلة غير كتاب صديقى الدكتور طه حسين. فماذا يكون الحال بالقياس إلى من يدرسون تاريخ أسلافنا جميعًا فى سائر البلاد التى تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم؟ أيكون ذلك مصدر إلهام لهم، ووحى فى التاريخ والأدب؟ يكون ولا ريب أسمى ما يكون الوحى والإلهام، كلما كان أوثق اتصالاً بوطن الإنسان وقومه».

وبناءً على هذا الأساس كانت للدكتور هيكل محاولات فى عالم التاريخ، هى فى واقع الأمر محاولات أديب يرى فى أحداث التاريخ ما يلهم أدبه أجمل الصور والمعانى.

وها هو يضع لكتاب السير منهجًا مبكرًا يقتحم به ميدان التاريخ، وذلك فى مقالات نشرها عام ١٩١٦م بمجلة السفور[٤] عن قاسم أمين. فيها عرض لغاية التاريخ والمنهج العلمى الذى تقوم عليه كتابة السير، فلم تعد غاية التاريخ ـ فى رأى الدكتور هيكل ـ أن يلم بمواليد الملوك ووفياتهم، وما يقومون به من الغزو والفتح. هو وحده الذى يقوم بتقييم حياة الأمم.. فقد ثبت للمؤرخين أن قيام الملوك ونزولهم عن عروشهم وما يتخلل ذلك من الحروب ليس إلا مظهرًا من مظاهر هذه الحياة،خصوصًا بعد أن دك عرش الاستبداد، وقامت الديمقراطية حاكمةً آخذةً بيدها الأمر والنهى. وإنما قوام حياة الأمم مميزاتها من أخلاق وعادات وعقائد وآمال، تلك هى مجموعة المظاهر التى تصدر عن الأمة والتى تقوم عليها الحكومات والملوك والحروب. ومن يوم أن ثبت ذلك لعلماء التاريخ فى أوربا، فقد وجهوا عنايتهم الخاصة لبحث كافة المظاهر التى كانت تصدر عن الجموع الذين يريدون تعرف ماضيهم. فلم يتركوا أثرًا يهدى لبعض هذه المظاهر إلا قفوه، وبذلك أمكن لهم أن يرسموا فى التواريخ التى وضعوها صورًا مضبوطة من تلك الأمم.

ويحدد الدكتور هيكل المنهج الذى يسير عليه، فيقول: «من أجل درس رجل من الرجال، فيلسوفًا كان أو كاتبًا أو شاعرًا، يجب قبل كل شىء تعرف الوسط

الذى عاش فيه، والحالة النفسية الخاصة به، حتى نعلم تأثير هذه البيئة المعينة على هاته النفسى المعينة، فإذا تم ذلك، تفسر الفيلسوف أو الكاتب أو الشاعر إلى حد كبير».

فإذا كان هذا هو منهج الدكتور هيكل فى كتابة التاريخ بوجه عام، فماذا عن منهجه فى كتابة المؤلفات الإسلامية؟

يحدثنا الدكتور هيكل عن المنهج الذى سلكه فى مقدمته الأولى لكتاب «حياة محمد»، فيذكر أنه بدأ يراجع تاريخ الرسول الكريم، ويعيد النظر فى «سيرة ابن هشام»، و«طبقات ابن سعد»، و«مغازى الواقدى»، وعاد إلى كتاب «روح الإسلام»، ثم حرص على قراءة كتب المستشرقين. ثم يؤكد بعد ذلك أن أصدق مراجع السيرة هو القرآن.

وفى تنفيذ ما اعتزم عليه من كتابة «حياة محمد» على الطريقة الصحيحة كتابة مفصلة.. دعاه إلى ذلك التفكير فى أمثل الوسائل لتمحيص السيرة تمحيصًا علميًا، حيث يقول فى مقدمة الطبعة الأولى[٥]: «لست مع ذلك أحسبنى قد أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد، بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة العلمية الحديثة. وتقتضيك هذه الطريقة العلمية الحديثة إن أردت بحثًا ـ على ما يقول الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغى[٦] فى تعريفه بالكتاب مستندًا إلى قول المؤلف ـ أن تمحو عن نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقومات العلمية، وبذا تكون قد وصلت إلى نتيجة علمية مالم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد ﷺ وأساس دعوته».

ويرى الشيخ الإمام المراغى أن: «هذه الطريقة طريقة القرآن، فقد جعل العقل حكمًا، والبرهان أساس العلم، وعاب التقليد وذم المقلدين، وأنّب من

يتبع الظن وقال إن الظن لا يغنى من الحق شيئًا، وعاب تقديس ما عليه الآباء، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها».

وهذه الطريقة هى بعينها التى اتبعها الدكتور هيكل فى تناوله للمادة الإسلامية، والتى يقول عنها إنها الطريقة العلمية الحديثة هى فى واقع الأمر طريقة سلف المسلمين، فقد جرى الإمام الغزالى عليها. فقرر «أنه جرد نفسه من جميع الآراء، ثم فكر.. وقدر.. ورتب ووازن.. وقرب وباعد.. وعرض الأدلة وهذبها وحللها، ثم اهتدى بعد ذلك كله».

فهى إذن طريقة قديمة فى الشرق نسيها، بعد أن فشا التقليد وأهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل.. رجعنا فأخذنا، وقلنا عنهم إنها طريقة فى العلم جديدة.

وعلى هذا المنهج فى البحث والاستقراء والموازنة[٧] كتب الدكتور هيكل تراجمه الإسلامية، ولم يكن هذا المنهج غريبًا عليه، إلا أنه أوفى به على الغاية فى كتابتها، فقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة ومكنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة، وأوفى منها على حظ عظيم، وناظر وجادل، وهاجم ودافع فى المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع، وفى السياسة، وفى غيرها. فنضج عقله واتسع اطلاعه فأصبح يدافع عن آرائه بمنطق قوى وحجج باهرة وأسلوب اختص به، لا تخفى نسبته إليه. بهذه الثقافة وهذه القوة نسج الدكتور هيكل خيوط أفكاره فى كتابة المادة الإسلامية.

وبهذا المنهج العلمى من البحث والاستقراء والتحليل والموازنة، استطاع الدكتور هيكل أن ينقى السيرة من الشوائب التى دخلت عليها؛ لعقم المنهج التاريخى القديم الذى يقوم على الرواية والتواتر، دون أن يعنى بالفحص والتمحيص مما حمل عليه ابن خلدون، وضرب أمثلة له مما حفلت به كتب التاريخ من تهاويل لا يقبلها العقل أو مبالغات لا يستسيغها المنطق.

وأن يمضى الدكتور هيكل مؤرخاً للإسلام، فكتب «حياة محمد»، و«فى منزل

الوحى»، و«الصديق أبو بكر»، و«الفاروق عمر»، و«عثمان بن عفان» و«الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة»[٨].

ففى كتاب «حياة محمد» يبحث الدكتور فى بدايته عن مهد الحضارات الأولى. حيث أشرقت الدنيا بنور الرسالات السماوية، ثم ما كان من نشأة المسيحية وانتشارها وانقسامها إلى فرق متناحرة، حتى كان الجدل بين أتباع عيسى (عليه السلام).. جدل أيام الانحلال فى كل أمة وعصر، وهو ما أصاب المجوسية فى فارس حيث انقسمت آلهة الشر والخير وأتباعهما عند المجوسية فرقاً وطوائف.. وفى هذا الوسط من الصحراء وعلى طرق القوافل المحاذى للبحر الأحمر ما بين اليمن وفلسطين، وفى واد محصور بين الجبال.. تقوم مكة. ومن العسير معرفة تاريخ قيامها، وأكثر الظن أنه يرجع إلى ألوف السنين. ومن الراجح أن إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام)، هو أول من اتخذها مقامًا وسكنًا، وإن ظل تاريخها قبل ذلك غامضًا.

ويأتى الدكتور هيكل على ما كان من أمر إبراهيم وفراره من قومه بعد أن ألقوه فى النار، وتجواله بين فلسطين ومصر، ودخوله بهاجر، ومولد إسماعيل، وما كان من قصة الفداء، وغيرة سارة من هاجر وولدها إسماعيل، حتى حملت إبراهيم (عليه السلام) على أن يذهب بهاجر وابنها اسماعيل صوب الجنوب، حتى وصل إلى الوادى الذى تقوم به مكة الآن.. ثم ما كان من تفجر ماء زمزم.

ويتوارث مكة اجداد النبى ﷺ وآخرهم عبد المطلب الذى لئن ولد له عشرة بنين لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. وحين أراد أن يفى بنذره، وضرب صاحب القداح التى تحمل أسماء بنيه عند «هبل» فى جوف الكعبة فخرج القداح على عبد الله أصغر بنيه وأحبهم إليه، ولما سار به لينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم. قامت قريش تهيب به ألا يفعل. ولم يرده عن نذره إلا حكم عرافة يثرب.. أشارت عليه بأن يضرب القداح بين ولده وعشرة من الإبل. يزيدها حتى ترضى الآلهة وتخرج القداح على مائة من الإبل، وينجو عبد الله أبو النبى (صلوات الله عليه) من الذبح.

وارتفعت مكانة مكة، وازداد بيتها علواً، وسرت هواتف عن نبى يظهر فى بلاد العرب. وكان عبد الله فتى وسيم الطلعة وتتمناه إنس مكة ونساؤها، ولكن القدر قد أعد له آمنة بنت وهب، ولذلك تزوجها. ولم يك إلا شهر بعد زواجه منها حتى مات، وبقيت آمنة بعد ذلك لتلد محمداً، ولتموت ومحمد ما يزال طفلاً صغيراً.

ويمضى الدكتور هيكل فى سرد حياة النبى فى طفولته بالبادية وكفالة جده عبد المطلب ووفاة آمنة ومن بعدها عبد المطلب فى الثمانين من عمره، ومايزال الطفل فى الثامنة من عمره، وما لقى من عناية عمه أبى طالب ورعايته. يقول:

«وانصرف محمد ﷺ إلى التفكير والتأمل وكان يرعى الغنم، وارتفع فى عمله وتصرفه حتى لقب بالأمين، واشتغل بالتجارة لخديجة فزادت أموالها وربحت. وتزوجت خديجة من محمد ﷺ وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياة الرسول، بعدها تسير الحياة.. إلى أن كان نائمًا بالغار جاءه ملك وفى يده صحيفة فقال له: اقرأ فأجاب مأخوذاً: (ما أقرأ). فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله، ويقول له: (اقرأ)، فقال محمد وقد خاف أن يخنقه مرة ثانية: (ما اقرأ)؟ فقال الملك: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٩].. وتبدأ أهم مرحلة فى حياة النبى ﷺ: وهى مرحلة الرسالة، معها تبدأ مقاطعة قريش للرسول الكريم وحصارهم لمن اتبعه من المسلمين. ويزيد المشكلة حدة أنه فجع فى عمه أبى طالب وزوجته خديجة.. فاشتد إيذاء قريش له بعد أن فقد هذين النصيرين، حتى أن سفيهًا من سفهاء مكة اعترضه ورمى على رأسه ترابًا.

وتزداد سوء معاملة مكة للرسول وصحبه فيهاجر إلى المدينة، وما أن يستقر بها حتى بدأوا يحنون إلى مكة، وبدأوا يفكرون فيما تركوا وما أنزلت بهم قريش من ألوان الأذى.

وتبدأ مصادمات وحروب بين قريش والرسول وصحبه فيها، حيث يوضح الدكتور هيكل أن الإسلام دين ينكر حرب الاعتداء، وأن الإسلام ليس دين وهم

وخيال، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده إلى الكمال. إنما الإسلام دين الفطرة التى فطر الله بها الناس جميعًا، وهو دين الحق والحرية والنظام. ومادامت الحرب فى فطرة الناس، فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق الحدود الإنسانية هو غاية ما تحتمل فطرة البشر، وما يحقق للإنسانية اتصال تطورها فى سبيل الخير والكمال.. وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس بوعى العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة إليه وأن ترعى فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية. وهذا ما قرر الإسلام على ما رأينا وما سنرى من بعد. وهذا ما نزل به القرآن الكريم..».

ويمضى الدكتور هيكل فى سرد الأحداث حول حياة النبى ﷺ وفى نفس الوقت ينفذ دعاوى المستشرقين مشيرًا إلى انقلاب الأمر فى تفكير المسلمين بسبب ما تعاقب عليهم من «حكم الغزاة الذين توالوا على الإمبراطورية الإسلامية منذ انتهاء العصر العباسى»، وما كان من تبدل الأمر من الشورى فى الصدر الأول، إلى الملك العضود أيام الأمويين، إلى الحق الإلهى أيام العباسيين، ثم يفرّق بين إيثار الإسلام وأثرة الغرب المسيحى، ويرى فى حياة الرسول الكريم من السمو والقوة مالم تبلغه حياة غيرها، حيث يقول: «وبلغت هذا السمو فى نواحى الحياة كلها جميعًا، وما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون من أزله إلى أبده، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة. ولولا هذا الاتصال، ولولا صدق محمد فى تبليغ رسالة ربه لرأينا الحياة على مر الدهور لا تنفى مما قال شيئًا لكن ألفا وثلاثمائة وخمسين سنة انقضت ومايزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدى. وبحسبنا على ذلك مثلاً واحداً نضربه.. ذلك ما أوحى الله إلى محمد أنه خاتم الأنبياء والرسل. انقضت أربعة عشر قرنًا لم يقل أحد خلالها أنه نبى أو أنه رسول رب العالمين فصدقه الناس. قام فى العالم أثناء هذه القرون رجال تسنموا ذروة العظمة فى غير ناحية من نواحى الحياة فلم يوهب أحدهم هبة النبوة والرسالة، ومن قبل محمد كانت النبوات تترى إلى الدين الحق ولا يقول إنه أرسل للناس كافة أو أنه خاتم الأنبياء والمرسلين. أما محمد فيقولها

فتصدق القرون كلامه. ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين..».

ولا يرى الدكتور هيكل أنه أوفى على الغيلة من البحث، فيختتمه بهذا القول: «وغاية ما أرجو أن أكون قد وفقت لما قصدت إليه من هذا البحث، وأن أكون قد مهدت السبيل إلى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضةً وعمقاً».

وأما الصديق أبو بكر فى رأى الدكتور هيكل،فقد كان صفى محمد (عليه السلام) وخليله، وكان أكثر أصحابه اتصالاً به، وكان لذلك أكثرهم تتبعًا لتعاليمه، وهو بعد ذلك رجل رقيق الخلق، رضى النفس، وإليه ينسب عشرات الألوف بل ومئاتها من المسلمين المنتشرين فى أنحاء الأرض، ثم إلى جانب رقته ورفعته الخليفة الأول، وهو الذى أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب أن يقضوا عليه. ولهذا فحين يقدم الدكتور هيكل كتابًا عن الصديق أبى بكر، فإنه بذلك يكون قد مهد الطريق لكتابة تاريخ هذه الإمبراطورية كله أو بعضه، ولهذا تناول سيرته من أولها.. من قبيلته وأبويه وصباه وصفاته وأخلاقه واشتغاله بالتجارة، وصلته بالنبى ﷺ قبل الإسلام ثم إسلامه ووقوفه إلى جانب النبى فى غزواته وموقفه العظيم بعد موت النبى حين تبلبل العرب وارتدوا، ثم تمهيده للفتح وللإمبراطورية الإسلامية الكبرى، حين تم فى عهده فتح العراق والشام، وكيف كان ينظم حكومته تلك التى كانت تعمل، ثم مرضه واستخلاف عمر بن الخطاب من بعده.

ولأبى بكر عظمة.. يكفى أن نذكر ما حدث فى عهده لنتأكد من هذه العظمة. إن فيما رواه المؤرخون من وقائع فى عهد أبى بكر ما ينطوى على عظمة نفسية تثير الدهشة، بل الإعجاب بل الإكبار والإجلال.. فهذا الرجل الوديع السمح تنطوى نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد أو الإحجام، وعلى قدرة ممتازة فى بناء الرجال وفى إبراز مواهبهم.

ويتساءل الدكتور هيكل فى كتابه: «أين كانت عبقرية أبى بكر أثناء حياة الرسول ﷺ؟» ويجيب قائلاً: «عدت بالذاكرة إلى سيرة أبى بكر قبل خلافته واستحضرت مواقفه من رسول الله ﷺ فبدت لى فى ثوب جديد من الجلال. تحيط بها هالة من عظمة تواضعت إلى جانب عظمة رسول الله ﷺ ولكنها برزت أمامى بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها إلى سائر أصحاب رسول الله ﷺ ومن اتبعه من المسلمين، فأين مواقفهم من جلالها وعظمتها ومن مواقفه أول الرسالة؟! وحين كانت قريش تنال من رسول الله بالإساءة والأذى، وحين كان حديث الإسراء وأول الهجرة، وفى مكافحة دسائس اليهود بيثرب. إن كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بأن يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه فى كتاب الخلود، وعظمة أبى بكر مع ذلك هى العظمة الصامتة التى تأبى أن تتحدث عن نفسها؛ لأنها عظمة الروح، وعظمة الإيمان الحق بالله وبما أوحى إليه رسله».

ثم يتساءل الدكتور هيكل بعد ذلك عن الجوانب التى جعلت من أبى بكر عظيمًا وعبقريًا. ومنها حسن رأيه وبعد نظره، فهو حين يفكر فى غزو الفرس وفى غزو الروم يفكر جيدًا فى تكوين هاتين الإمبراطوريتين، وهذا فى واقع الأمر بعد نظر منه.

وحين يحدثنا الدكتور هيكل عن عهد أبى بكر وما يتميز به، وعن الصعاب التى صادفها فى بداية عهده والتى أثارت مخاوف المسلمين. عن كل هذا يحدثنا الدكتور هيكل، فيقول: «وأنا أقصد ما أقول حين أذكر أن عهد الصديق له ذاتيته الخاصة، وتكوينه التام.. فهو على اتصاله بالرسول وعهده يمتاز بطابع يشخصه فى عهد الرسول. كان عهد وحى من عند الله أكمل الله به للناس دينهم، وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الإسلام دينا..».

كذلك من دلائل عظمة أبى بكر قضاؤه على ثورة الردة. تلك التى استطارت عقب وفاة الرسول فى بلاد العرب جميعًا بسرعة مروعة، كما تستطير النار فى الهشيم، وبلغت أنباؤها أهل المدينة ممن حول أبى بكر بعد أن بايعوه فتولتهم الدهشة واختلفوا فيما يصنعون. وها هو عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

وقومه يرون ألا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ما داموا يشهدون أن لا إله إلاالله وأن محمدًا رسول الله. لكن أبا بكر أصر على قتال من منعوا الزكاة، كما أصر على قتال من ارتدوا، وكانت حروب الردة التى استمرت عامًا وبعض عام.

والدكتور هيكل حين يقدم لنا أبا بكر الخليفة والصديق يقرر أن هذا الخليفة أدرك بإلهامه أن الإسلام دين مساواة بين الناس جميعًا. فالدعوة به لم توجه إلى قوم بعينهم وإنما وجهت إلى الناس كافة. وقد اصطفى رسول الله فى حياته موالى رفعهم إلى أعز مكانة وأسماها، كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب.

وكذلك أدرك أبو بكر كما يقرر الدكتور هيكل بإلهامه أن الإسلام إمبراطورى فى جوهره. فالدعوة إليه لم تنحصر فى العرب، بل هى دعوة إلى الحق موجهة إلى الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها.

هذه المبادئ الجوهرية التى قامت دعوة النبى الكريم على أساسها، والتى أدركها أبو بكر أدق الإدراك بإلهامه، هى التى طوعت للصديق أن يزيل ما استفتح عهده من صعاب وأن يتغلب عليها، وهى التى أكدت ـ كما يؤكد الدكتور هيكل ـ على عظمة الصديق فى أوجه كثيرة.

وحين يقدم لنا الدكتور هيكل «الفاروق عمر» (رضى الله عنه) يقول: «ليس فى التاريخ الإسلامى بعد رسول الله ﷺ رجل تردد الألسن مثلما تردد اسم عمر بن الخطاب. وهى ترددة وتقرن به بإعجاب وإكبار ما عرف عن عمر من جميل الصفات وعظيم المواهب».

والحق أن عمر كان له من السمات والصفات ما يجعله أهلاً لهذا المركز الذى وضعه فيه الدكتور هيكل.. فإذا ذكر الناس الزهد فى الدنيا مع القدرة على النيل من أنعمها ذكروا زهد عمر، وإذا ذكروا العمل المطلق غير المشوب بشائبة ذكروا عدل عمر، وإذا ذكروا النزاهة التى لا يفرق صاحبها بين أقرب الناس وأبعدهم عنه ذكروا نزاهة عمر، وإذا ذكروا العلم والفقه فى الدين ذكروا فقه عمر ودينه.

والدكتور هيكل يرجع كل هذا إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية فى عهد عمر. فقد خلف هذا الصحابى الجليل أبا بكر (رضى الله عنه) على إمارة المؤمنين حين فرغ أبو بكر من حروب الردة، وحين كانت جنود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام. فلما قبض عمر كانت الإمبراطورية الإسلامية قد اشتملت العراق والشام معًا وتخطتهما فاشتملت فارس ومصر وبذلك بلغت حدودها الصين من الشرق، وإفريقيا من الغرب، وبحر قزوين من الشمال والسودان من الجنوب. وقيام هذه الإمبراطورية ـ كما يقرر الدكتور هيكل فى صفحات كتابه ـ معجزة لا ريب فيها.

فإذا تمت هذه المعجزة فى عهد عمر وبتوجيهه فهو لا ريب رجل عظيم. وقد بدت بوادر هذه العظمة فى عهد رسول الله ﷺ وفى عهد أبى بكر، ثم ضاعف نصر المسلمين من بعدهما وزادها على مر العصور، وأضاف إليها. فقد تبين الناس على تعاقب الأجيال أن هذه الإمبراطورية لم تكن وليدة عبقرية حربية تبقى الإمبراطورية ما بقيت، وتزول بزوالها، بل كانت قائمة على أساس قوى من خلق متين وحضارة سليمة الأساس.

ويضرب الدكتور هيكل مثلاً قائلاً: «فإذا صح أن يشيد الناس بعظمة يوليوس قيصر، والإسكندر الاكبر وجنكيز خان ونابليون لأنهم أقاموا من الإمبراطوريات ما أقاموا، فأحرى بهم أن يكونوا أكثر إشادة بعظمة عمر بن الخطاب، وأكبر تقدير لآثارها.

فلم تنقض من خلافة عمر سنتان، ومن يومئذٍ حالف النصر أعلام المسلمين، حينما ساروا ففتحوا المدائن وفتحوا بيت المقدس، ثم تخطوا العراق إلى فارس وتخطوا الشام إلى مصر. كما استقر لهم الأمر فيها. وكذلك شاد عمر الإمبراطورية الإسلامية فى عشر سنوات لتستقر فى العالم وتوجه حضارتها الاجيال والقرون».

ولقد كان للدكتور هيكل الحق فيما قاله بأن الألسن تردد اسم عمر، وأن تذكر من جليل صفاته وعظيم مواهبه ما يثير فى النفس غاية الإعجاب والاكبار.

وعندما يؤرخ الدكتور هيكل لثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، يتناول ملابسات اختيار هذا الخليفة للقيام بأعباء الحكم، والناس لم يفيقوا بعد من الذهول الذى أصابهم لمصرع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. . والدكتور هيكل لم يقتصر على إثبات ما حدث من اجتماع الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة من بعده وما أثير من مناقشات، بل إنه أشار إلى منشأ فكرة الشورى عند عمر، وكيف أنه تردد بين أن يترك أمر تعيين الخليفة للصحابة يتشاورون فيه اقتداءً برسول الله ﷺ، وأن يعين خليفته اقتداء بأبى بكر حين أجمع رأى الصحابة عليه. ولقد كان التطور الذى شهدته الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ، ومنذ عهد أبى بكر يقتضى ألا يترك الأمر رسلا. فانتهى عمر إلى أن النظام الشورىّ نواة لنظام تشريعى مرن لاختيار الخليفة، يتطور بتطور ظروف الدولة وأوضاعها السياسية. وقد أتاحت المرونة التى تميز بها هذا النظام، أن يتسع نطاق المشاورات، وألا يقتصر على الستة الذين عينهم عمر، وأمكن بذلك التوفيق بين الاتجاهات المتعارضة توفيقًا كان لابد منه ليضمن للشورى مبايعة الناس من يخترونهم من بينهم.

وإذ تجتمع لعثمان البيعة يبحث الدكتور هيكل فى ملامح الخليفة الجديد ،وفى طباعه، وفى ما يمكن أن تؤثر به هذه الطباع فى سياسة وإدارة الدولة فى عهده. . ذلك لأن لشخصية الحاكم فى جميع العصور أثرًا فى سياسة الدولة وتصريف أمورها. وقد شهد المسلمون من عدل عمر وحسن سياسته ما يعكس كثيرًا من طباعه. فهل سيكون لعثمان فى سياسة الدولة من الأثر ما كان لعمر؟ ذلك ما سيتكشف عنه حكمه.

وقد إتبع عثمان، (رضى الله عنه) فى أول عهده سياسة الرسول والشيخين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لعهدٍ قطعه على نفسه حين بويع أن يجرى على هذه السيرة، ويتمثل ذلك بوضوح فى سياسة الفتوحات فى عهده، فقد كانت تلك السياسة امتدادًا لسياسة عمر، (رضى الله عنه). وإن كان كل ما حدث من انتفاض بعض الولايات وثورة بعضها قد حتم عليه أن يبادر بتسيير الجيوش

لقمعها والقضاء عليها. كذلك كان حتمًا عليه أن يبادر إلى تجهيز أسطول المسلمين بالشام ومصر؛ ليرد المغيرين على أعقابهم، على الرغم من أن عمر كان قد نهى عنه، إذ لم يكن للعرب عهد بالبحر من قبل. ولعل ما أتاه عثمان من ذلك ومن مثله لم يكن مخالفة للعهد الذى قطعه على نفسه، وإنما أملته ظروف لو أن عمر شهدها لرأى فيها مثلما رأى عثمان، وقد فصل الدكتور هيكل سياسة عثمان هذه مما يشهد بذلك ويؤيده. على أن ما خالف به عثمان عمر لم يكن يثير عليه أحدًا، لو أنه اقتصر على ما كان ضروريًا من ذلك، إلا أنه ـ وولاته ـ عمدوا إزاء اتساع رقعة الإمبراطورية وازدياد خراجها وريعها إلى نوع من الحياة لم يألفه الناس، كما أنه سلك فى تولية هؤلاء الولاة وعزلهم طريقًا لم يكن ليرضى عنه الكثير.

الراجح فى هذا الشأن أن عثمان بن عفان أبقى عمال عمر على ولاياتهم فى العام الأول من خلافته، تنفيذًا لوصية سلفه. ثم إنه استبدل بهم غيرهم، أكثرهم من ذوى قرباه؛ ليضمن ولاءهم. ولو لم يكن ذلك من سيرة عمر فى شىء، بل إن هذه القرابة كانت تكفى عمر ألا يولى صاحبها من يتهم فى نزاهته.

ونطوف مع الدكتور هيكل فى رحلة مكانها «منزل الوحى» حيث يستهل فى حديثه عنها بهذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(١٠).

وكيف أن أسفار الكثيرين من أصدقائه تمثلها، فمنذ أعلن عن عزمه عن الرحلة إلى الحجاز حاجًا حتى ودعوه مسافرًا ويصل إلى ميناء جدة بالباخرة، وبعد ذلك دخوله مكة فى منتصف الليل ليؤدى العمرة. ويجىء يوم عرفات والتفكير فيما يجب قضاؤه من شعائر الحج. بعد ذلك يصف لنا أيام التشريق على ما كان يسميها العرب فى القديم، والتى تعرف بأيام النحر الآن.

ويحدثنا أيضًا عن البلد الحرام، ويبدأ بمكة الحديثة، فيقول: «أشرت إلى ما رأيت يمكن أن نزولى بها وذكرت دار مضيفى.. وغاية ما يستشفه الإنسان من

خلال الحياة فى أم القرى أليم. فذلك أن شبابها يصبو بكل وجدانه إلى الحياة الحديثة، وأن هذه الصبوة لم تقمه فى نفسه إلا بعد أن انفصل الحجاز عن دولة الخلافة، بالثورة التى أعلنها الحسين بن على، والتى يسمونها عهد النهضة.

وكل الذين يفدون إلى مكة فى أشهر الحج يفدون للصلاة فى المسجد الحرام».

ثم يحدثنا عن الكعبة.. ومقام إبراهيم.. ومن بعدها آثار مكة، ومنها دار الأرقم ودار أبى سفيان، وغيرها من الآثار. ويزور غار حراء، وكم كان الدكتور هيكل فنان حين يقدم بقلمه صورة ما شاهده عند حراء هذا المكان المقدس: «وحسبك أن تقف قبالة حراء، وأن تتأمله لتذكر هذه المشهد كله ولتراه مرتسمًا أمامك وكأنه حدث منذ عهد قريب».

وننتقل مع الدكتور هيكل إلى الطائف هذه المدينة التى تعدّ من أقدم المدن فى بلاد العرب. ولعل الدكتور هيكل لا يغلو من أن يحسبها أقدم مدينة فى بلاد العرب، إذ كانت هى بالفعل أقدم مدينة كما يروى المتقدمون. وننتقل معه إلى أسواق العرب فى العصر القريب حتى يأتى طواف الوداع. ونراه يظل فى هذا المكان العظيم وقتًا.. من بعده يذهب إلى مدينة الرسول، حيث يحدثنا عن المسجد النبوى الشريف.. من بعده يحدثنا عن الآثار المقدسة الموجودة فى المدينة، وأمام الحجرة النبوية الشريفة هذه التحية: «السلام عليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته.. نشهد أن نبى الله ورسوله، قد بلغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم له النصر لدينه، وأنه وفى بعهده، وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له». ثم سلم على الصديق أبى بكر والفاروق عمر المدفونين فى حجرة مجاورة.

ثم يحدثنا عن شهداء بدر حديثًا طويلاً، فيه ذكر للحياة الروحية والمادية.

وباختصار.. فإن كتاب فى «منزل الوحى». يظهر لنا قدرة الدكتور هيكل الصحفية، ذلك أن القارئ يقوم معه برحلة إلى البلاد المقدسة، من لحظة عزمه السفر إلى وصوله هذه البقاع المقدسة إلى عودته.

يبقى الحديث عن الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة، حيث أراد

الدكتور هيكل أن يؤرخ تأريخًا صحيحًا من منشئها إلى بداية قيام الدولة الأموية، ويظهر هذا التاريخ بصورته المشرقة باعتباره ثمرة لغرس محمد ﷺ ودينه. ويكون مادة طيبة للوحى والاستلهام؛ لحضارة جديدة أساسها أن معرفة الماضى وسيلة لتطوير الحاضر، وتحسين المستقبل على النحو المشرق، الذى يرجى للأقطار القريبة.

فسجل الدكتور هيكل لهذه الإمبراطورية مخصصًا لها كتابًا يجمع بين دفتيه مباحث من موضوعين أساسيين:

أولهما: نظام الحكم فى الإسلام.

ثانيهما: الأماكن المقدسة فى الشرق.

وقد بين الدكتور هيكل فى الجزء الخاص بالمبادئ العامة لنظام الحكم، أن نظام الحكم الذى يتفق مع مقررات الإسلام، هو النظام الذى تكفل فى ظله الحريات، ويتخذ لنفسه أساسًا من رضا المحكوم على الحكم.

وقد تناول الدكتور هيكل فى هذا الكتاب فكرتى الاشتراكية والديمقراطية فى الإسلام. وقد خلص إلى أن الديمقراطية الإسلامية هى التى تقوم فى النفس على أنها من فرائض الإيمان.

وكذلك تناول الدكتور هيكل بالبحث المبادئ الرئيسية للحرية الشخصية، التى قامت على أساسها مواثيق التنظيم الدولى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مبينًا ما بينها وبين مقررات الإسلام من صلات.

ثم ينتقل بنا الكتاب إلى الأماكن الإسلامية فى الشرق الأوسط مقدمًا عرضًا تاريخيًا أولا، ثم يصف هذه الأماكن وأثرها الروحى فى حياة العالم من مكة إلى المدينة إلى بيت لحم، وبيت المقدس مستقر عيسى (عليه السلام)، وموئل موسى (عليه السلام).

❁❁❁

وهكذا أضاف الدكتور هيكل بما كتب جديدًا إلى الفكر الإسلامى*.

❁❁❁

الهوامش

(١) الشخصيات العشرون لمحمود تيمور ص٦٨.
(٢) هيكل وحياة محمد للدكتور حسين فوزى النجار.
(٣) المرجع نفسه للدكتور حسين فوزى النجار.
(٤) مقالات الدكتور هيكل بمجلة السفور عام ١٩١٦م.
(٥) مقدمة الطبعة الأولى فى طبعته الأولى.
(٦) «تعريف لكتاب حياة محمد» للإمام الأكبر محمد مصطفى المراغى.
(٧) حياة محمد للدكتور حسين فوزى النجار.
(٨) مؤلفات الدكتور هيكل.
(٩) سورة العلق ـ الآيات ١ ـ ٥.
(١٠) سورة لقمان ـ من الآية ٣٤.
(*) إسلاميات ـ تأليف سامح كريم.

obeikandl.com